الأطبّاء الأندلسيون
ودورهم في إثراء الدّراسات الطبيّة وتطويرها

أ.د. أجقوعلي
جامعة تبسة - الجزائر

مقدمـــة :

عرف المسلمون قيمة العلم، ومن ثمّة انطلقوا يبحثون عنه في كلّ مكان وتمكّنوا من نقل علوم بلاد اليونان والرّومان ونفضوا عنها الغبار. وبفضل هذه العزيمة في البحث تمكّن هؤلاء العلماء من تأكيد حضورهم في كلّ فنّ وفي كلّ لون من ألوان المعرفة. لقد كان هذا التّراث الإسلامي الرّكيزة القويّة التي اعتمدت عليها أروبا في تحقيق نهضتها العلميّة الأخيرة، بل إنّ هذا التّراث هو الذي أفرز ما يسمى عصر إحياء العلوم في العالم الغربي كلّه. وقد انتقل هذا التّراث إلى أروبا عبر منافذ كثيرة : الدّردنيل والبحر الأسود وبحر قزوين وصقليّة والأندلس. وسنقتصر في هذا المقال على معرفة فضل التّراث الطّبي الإسلامي الأندلسي على أروبا.

فما هو الطّب إذا؟ هو باختصار فنّ البحث في الأمراض والعلل التي تصيب الإنسان والبحث عن العلاج لها والتّخفيف من آلام النّاس.والأمراض لا تصيب البشر فقط بل تصيب الحيوان والنّبات أيضا. وما يهمّنا في هذا المجال هو الطّبّ البشري.

الواقع أنّه ما دام هناك إنسان فلا بدّ أن تكون هناك أمراض ومن ثمة فلا بدّ من البحث عن إيجاد العلاج لها، لكن فهم تلك الأمراض والتّعرّف عليها وتشخيصها بطريقة سليمة وحصر العلاج الفعّال لها تختلف من عصر إلى عصر بحسب درجة تقدّم ذلك العصر وبحسب الظّروف التي تساعد على تطوّر العلوم والمعارف ومنها العلوم الطّبيّة.

الطّب في الأندلس، الذي هو موضوع بحثنا، يعتبر امتدادا طبيعيّا للطّب في المشرق، وخاصّة في العصر العبّاسي[1]، الذي شهد اهتماما منقطع النّظير بالعلم والمعرفة وفي مختلف المجالات ومنها المجال الطبي، ممّا ساعد وشجّع العلماء المهتمون بالأبحاث الطبية على التفرّغ للبحث العلمي وتطوير القطاع الاستشفائي على جميع المستويات : كشفا وفحصا، تشخيصا وعلاجا.

لقد شكّل الفتح الإسلامي للأندلس عام 92هـ/710م نقطة تحوّل كبير في تاريخ العلم والمعرفة: فبعد ركودٍ لفترة طويلة بدأ النّاس في الاهتمام بدراسة العلوم خاصّة في زمن الدّولة الأمويّة الأندلسيّة. حيث بلغت الحضارة الأندلسيّة ذروتها بين منتّصف ق. 8/2 وق. 11/5.

لقد نتج عن تلك الإفاقة نهضة طبيّة كبيرة أنجبت عددا معتبرا من الأطبّاء الرواد المشهورين في الطبّ والتّأليف الطّبي: فقد استطاعت كوكبة من الأطبّاء الرواد أن تضيف إلى ما اقتبسته من الحركة العلميّة، وكانت بغداد حاضرة الخلافة العباسيّة مسرحا لها، خلاصة تجاربها وملاحظاتها الخاصة وذلك في فروع العلوم الطبيّة المختلفة. وبفضل هؤلاء الأطباء العاملين الأعلام قامت نهضة طبيّة مماثلة على غرار النّهضة الطبيّة المشرقيّة وتميّزت النهضة الأندلسيّة بإعطائها أهميّة فائقة للجراحة، وكان الزهراوي والغافقي الأندلسيين من أبرز أقطابها.

وطبيعيا والحالة تلك أن يظهر عدد كبير من الأطباء المبدعين الذين أضافوا شتى النّظريّات العلميّة والملاحظات الهامّة، وبذلك تركوا لأروبا تراثا طبيّا مهما اعتمدت عليه فيما بعد في تطوير معارفها في هذا المجال.

((1) لقد أنجب هذا العصر أطبّاء ذاع صيتهم في الآفاق وملؤوا الدنيا علما وحكمة، ولعلّ أهمّهم: الكندي، الرّازي، ابن سينا وابن النّفيس.

سنحاول في هذا المقال ضبط براعة الأندلسيين في العلوم الطبيّة، وإلى أيّ مدى كان إسهامهم في تطويرها ؟ وهل كانت لهم إضافات في المعرفة الطبّية العالميّة ؟ ومدى تأثير العلوم الطبيّة العربيّة في تطوّر علوم الطبّ بأروبا ؟

لقد تنكّر الأوربيون لقيمة الأطبّاء العرب ودورهم زاعمين أنّهم رددوا فقط الأسس والمبادئ الطبيّة التي وضعها اليونانيون ولم يزيدوا عليها شيئا إطلاقا.

سأكتفي هنا فقط بالتّركيز على الدّور الكبير الذي قام به بعضٌ من مشاهير الأطباء الأندلسيين في تطوير المعارف الطبيّة وإثرائها مركزا على الزهراوي والغافقي.

I- الهيئة الطبية المغربية والأندلسيّة:

إن السّاحة المغربيّة والأندلسيّة كانت مليئة بالأطبّاء والجراحين في مختلف الفروع الطبيّة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر إسحاق بن عمران، ابن الجزار، ابن جلجل، ابن وافد، الشريف الإدريسي، أبا القاسم بن زهر، أبا مروان بن زهر، ابن البيطار، طبيبات أسرة بني زهر، إلا أن أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي في الجراحة وأحمد بن قسوم بن أسلم الغافقي في طب العيون كانا أهمهم وأشهرهم جميعا.

أ- أشهر الأطباء:

لقد برز في الأندلس أطبّاء، في مختلف التّخصّصات، تجاوزت شهرتهم في المجال الطّبي الديار الأندلسيّة لتشمل أروبا.

1- في الجراحة:

1-1-أبو القاسم بن زهر: كان أشهر جراحي عصره، حيث ترك كتبا كثيرة في الطبّ لعلّ أهمّها بحثه الصّغير في الجراحة [2] الذي يشرح فيه العمليات الجراحيّة والأدوات المستعملة فيها. وقد وصف هذا الطّبيب عمليّة شقّ المثانة وتفتيت الحصى وذكر أنواعها وطرق تفتيتها وإخراجها والأدوات التي تستعمل في ذلك، ووصف أيضا

(2) إبراهيم (حسن): تاريخ الإسلام السّياسي والدّيني والثّقافي والاجتماعي، مكتبة النّهضة المصريّة، ط.1 1967، ج4، ص 521.

الضمادات التي يستعملها الجراح في تضميد جراح المريض [3]. ويعود إلى هذا الطبيب الفضل في اكتشاف علاج الأمراض الجلديّة ووضع في ذلك كتابا قدمه إلى الخليفة يعقوب المنصور الموحّدي[4].

1-2 أبو مروان عبد الملك بن زهر: يرجع إليه الفضل في [5] : وصف التهاب الناصور، والشّلل المعوي، والشّلل البلعومي، والتهاب التّامور، والتهاب الأذن الوسطى، وأيضا في شرح كيفية فتح القصبة الهوائيّة وكيفيّة استخراج الحصاة من الكلى. يضاف إلى كلّ هذا توصّله إلى [6]: علاج التراخوما عن طريق الجراحة وتغذية المرضى بالحقن الشرجيّة أو عن طريق شق المريء.

1-3- الزهراوي: هو أوّل من نبغ وتخصّص في علم الجراحة بين العرب بل أنه فخر الجراحة العربيّة. وهو ثالث ثلاثة من نوابغ العرب في الطّب أي الرازي، وابن سينا والزهراوي: لقد كان هؤلاء الأطبّاء بمثابة المصابيح التي أضاءت ظلام أروبا الحالك في المجال الطّبي [7]. لقد رفع هذا الطّبيب من شأن الجراحة، التي كانت تعتبر صنعة يدويّة حقيرة، إلى علم نفيس تهافت الأطباء على إجادته والتّخصّص فيه[8].

---

(3) نفس المرجع.

(4) نفس المرجع.

(5) الفاضل (عمر): الطب الإسلامي عبر القرون، دار الشواف، الرّياض ط.1 1989 ، ص48.

(6) نفس المرجع.

(7) منتصر (عبد الحليم) : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف، ط.8 1990، ص139.

(8) لم تتقدّم الجراحة عند العرب لاتّصالها بعلم التّشريح الذي لم يتقنه أطبّاء العرب من جهة ولأنّها كانت تعدّ من جملة الصّناعات اليدويّة الحقيرة التي كان يطلق عليها صناعة اليد من جهة أخرى، ومن ثمّة تعفّف أطبّاء العرب عن ممارستها حتّى صارت صناعة يقوم بها الحجامون. وفي الوقت الذي ترفّع الأطباء العرب عن ممارسة الجراحة انكبّوا على العكس من ذلك على دراسة الطب باعتبار أنه نتاج العقل، وهو في نظرهم أعلى منزلة من اليد. والواقع أنّ هذه العقليّة كانت سائدة أيضا في أروبا إلى وقت قريب : فمثلا مدرسة مونبيلييه الطبيّة الشهيرة في فرنسا ألغت خلال القرن 17/11 دراستها الجراحيّة وأصدرت أمرا يحرم على طلابها دراسة الجراحة ومزاولتها.

أمّا مؤلّفات الزّهراوي فهي كثيرة منها كتاب معروف بالزّهراوي، إلا أنّ أشهر كتبه ومصنّفاته على الإطلاق هو كتاب "التّصريف لمن عجز عن التّأليف" والذي هو عبارة عن موسوعة تشتمل على ثلاثين مقالا في الطّب والجراحة وتتألّف من قسمين نظريّ وعملي [9]. إلاّ أنّ أهمّ ما رفع قدره وخلد ذكره المقالة الثّلاثون التي خصّصها للجراحة. وهي أوّل بحث في علم الجراحة مزوّد برسوم إيضاحيّة كثيرة للأدوات والآلات الجراحيّة وأغلبها من اختراع الزهراوي نفسه [10].

لقد كان الزّهراوي جراحا ماهرا قدّم للعالم في ذلك الوقت كيفيّة تعقيم الجروح وتطهيرها عن طريق الكي بالنار أو عن طريق استعمال المواد الكيميائيّة والعضويّة، كما كان الزّهراوي بارعا في جراحة العيون والأذن والأسنان والفتق وفنّ التّوليد، كما تحدّث في كتابه أيضا عن الكيّ كعلاج للصّرع، كما عرف جراحة العظام وخلعها ودرس التّشريح واهتمّ به كذلك [11] . وكان الزهراوي عارفا بأمراض العيون والأنف والحنجرة والأذن، وأمراض المسالك البوليّة والتّناسليّة: فكان على علم بأورام الرّحم سواء كانت سليمة أم خبيثة ويرى أنّها إذا كانت خبيثة فلا فائدة من علاجها أو استئصالها والعكس إن كانت سليمة فتعالج بالاستئصال [12].

وقد تُرجم كتاب التّصريف مرات عديدة إلى اللاّتينيّة بدءا من القرن 12/6 حيث ظلّ المرجع الأوّل في علم الجراحة لمدّة خمسة قرون [13]. وبترجمته أمكن لتاريخ الطّبّ في العصر الحديث أن يدرك المستوى العالي الذي وصل إليه الطّبّ عند المسلمين. ولا أريد أن أعدّد ما أثبته تاريخ الطّبّ للزهراوي من المزايا الكبرى، واكتفي

---

(9) ألهوني (فرج): تاريخ الطّب في الحضارة العربيّة الإسلاميّة، الدار الجماهيريّة، طرابلس، ط.1 1986، ص 149.

(10) منتصر، مرجع سابق.

(11) نفس المرجع.

(12) ألهوني، مرجع سابق.

(13) حسن (إبراهيم): "العرب وإثراء الدراسات الطبيّة"، المؤرّخ العربي، العدد 17، 1981، ص 155.

–كما قال سيزكين– فقط بذكر "بعض العمليّات الجراحيّة الهامّة التي تنسب إلى أطباء كبار كانت معروفة في كتلب الزهراوي. ومن بينها على سبيل المثال إيقاف نزف الأوعية الدّمويّة الكبيرة التي اشتهر بها الجرّاح الفرنسي أمبرواز بار في القرن 16/10، وكذلك الطريقة التي تنسب إلى الطّبيب الإيطالي والهر المتوفّى عام 1935/1345 في فنّ التّوليد والتي تسمّى "وضع والهر" [14] ".

لقد اختصّت المقالة العاشرة من الكتاب بالجراحة حيث عالج فيها الزّهراوي عمليّات إخراج الحصى من المثانة بالشّقّ والتّفتيت، كما وصف بدقّة متناهية عمليّات البتر، والكسر والخلع وكذا الشّلل النّاتح عن الكسر في العمود الفقري وتعرّض أيضا لكيفيّة إخراج الجنين الميّت وعمل القابلات [15]. لقد ضمّن الزّهراوي كتابه صورا للمعدّات الطّبيّة التي يجب أن تستخدم في العمليّات الجراحيّة وكانت أغلبها من ابتكاره [16].

والزهراوي يعتبر أوّل من ربط الشّرايين [17] وأوّل من وصف النّزيف واستعدادات الجسم له أو استعدادات بعض الأجسام له، ونجح في شقّ القصبة الهوائيّة وأجرى عمليّات تفتيت الحصاة في المثانة وبحث في التهاب المفاصل [18]. وقد نصح بضرورة وجود الممرّضات والمساعدات في العمليّات الجراحيّة الخاصّة بالنّساء وذلك بغرض توفير الرّاحة النّفسيّة لهنّ [19]. كما عرف الزّهراوي كيفيّة تطهير الآلات المستخدمة في العمليّات الجراحيّة وتعقيمها[20].

ويمكننا القول بأنّ الأطبّاء المسلمين، الذين مكنتهم مهارتهم في علم التّشريح من النّبوغ في فنّ الجراحة، كان لهم قصب السّبق في هذا الميدان من حيث المنهج وتوسيع

---

(14) سيزكين (فؤاد): مكانة المسلمين والعرب في تاريخ الطّب، مجلة الثّقافة، عدد 94، 1406/ 1986، ص 113.
(15) منتصر، مرجع سابق.
(16) نفس المرجع.
(17) نفس المرجع، ص 140.
(18) نفس المرجع.
(19) نفس المرجع.
(20) نفس المرجع.

الخبرة العلميّة وعدد الآلات وأنواعها وتطويرها. ويمثّل الزّهراوي مرحلة التّطوّر الأهمّ في علم الجراحة حتى نهاية عصره. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصّدد أنّ مدارس الطب في أوروبا، كمدرسة مونبيلييه الشّهيرة في فرنسا، كانت منذ القرن 11/5 وحتى 15/9 لا تنصح بتعلّم الجراحة بل كانت تنفر منها: فقد أصدر مجلس تورس البابوي عام 1163/559 قرارا يمنع تعليم الجراحة في مدارس الطّبّ بحجّة أنّها تستهدف تغيير ما خلق الله (21).

ونتيجة لهذه المعرفة الواسعة بالعلوم الطبيّة سمي الزّهراوي في أوروبّا بأبي الجراحة (22). وهو يعتبر بحقّ أعظم جرّاح في العصور الوسطى عندما كانت أوروبا تعيش في ظلام دامس. وهذا مايؤكّده مايرهوف عندما يقول:" إنّ الزهراوي لم يكن جراحا عظيما وحسب ولكنّه كان عالما جماعا في الطّبّ" (23).

2- في طــبّ العيون:

أحمد بن قسوم بن أسلم الغافقي:

يعتبر الغافقي من أشهر أطبّاء العيون في عصره أي في القرن 12/6. وقد مارس هذه المهنة في قرطبة وألّف فيها كتــابا مهمّا عنوانه "مرشد الكحاليــن" ويشتمل على ستّ مقالات ويعتبر ثاني كتاب علمي يؤلّف في طبّ العيون بعد كتاب حنين بن إسحاق (24).

لقد تعرّض الغافــقي في كتابه بالشّرح والتّفصيل لأمراض العين من أعراضها إلى تشخيصها إلى علاجها بالطّب، واليد والحديد. والغافقي يمتاز على غيره بأنّه درس كلّ

(21) الطويل (توفيق): في تراثنا العربي الإسلامي، نقلا عن حسن فحلة، مقوّمات الحضارة الإنسانيّة في الإسلام، دار الهدى – الجزائر ط.1، 1989/1410 ، ص 207.

(22) الهوني، مرجع سابق.

(23) نفس المرجع.

(24) شيبان (السّعيد):" مصنف عصري لطبّ العين من القرن السّادس الهجري: مرشد الكحالين لمحمد ابن أسلم الغافقي"، مجلّة الأصالة، عدد 20، ماي – جوان 1974/1394 ن ص 47.

مرض على حدة وبشكل تام [25] خلافا لما كان سائدا عند اليونانيين والعرب، كما يرى ذلك مايرهوف، حيث يكرّرون الحديث عن المرض الواحد ثلاث مرّات أي عند الحديث عن الجانب التّشخيصي، وجانب الأعراض والجانب العلاجي: ففي دراسة الأمراض يستعمل الغافقي تصميما تشريحيّا عصريّا حيث يبدأ بالأجفان، والملتحمة، والقرنيّة، والبيت الأمامي للعين، والقزحيّة، والعدسة، والقسم الخلفي، والمادّة الزّجاجيّة، والشّبكة، والعصب البصري، والجهاز الدّمعي، ويختم بالعضلات التّابعة للعين. وهذا الجانب البيداغوجي له قيمة ثابتة في عصرنا الحاضر وفي أيّ مرحلة من مراحل التّعليم، والتّأليف والبحث.

لقد تحدّث الغافقي عن أمور ذات قيمة مهمّة في مجال الأدب الطّبيّ في عصرنا الحاضر كحديثه عن وجوب كتمان سرّ المريض ومجانيّة العلاج للفقراء [26]. وهذه أمور تعمل بها وتسعى إلى تحقيقها العديد من الدّول والمنظّمات المهتمّة بالرّعاية الطّبّية.

ومما يجدر ذكره أنّ الغافقي يعطي أهميّة بالغة لطبّ العيون عند الأطفال [27] والذي يعتبر تخصّصا حديث النّشأة.

لقد تناول الغافقي التراخوما حسب الظّواهر السّريريّة وحسب درجة الخطورة ووصف لها علاجا يوصي فيه بإشراك الأدوية المنقهة مع حكّ الحبوب بآلة لامسة تسمّى الوردة، وهذا علاج يعتبره أطبّاء العيون مقبولا في الحالات الخطرة. لقد تكلّم الغافقي أيضا عن التهاب الملتحمة المعروف بالرّمد وصنّفه إلى حاد ومزمن [28].

(25) نفس المرجع ص 48.

(26) نفس المرجع ص 50.

(27) نفس المرجع .

(28) نفس المرجع .

والغريب أنّه بعد مرور ستّة قرون على وصفة الغافقي، التي توصي بتقطير الأدوية المعقمة في حالة الإصابة بالرّمد، ينصح أستاذ طبّ العيون في باريس بشقّ الملتحمة، وهي طريقة أثبت أطبّاء العيون عدم جدواها بل نبّهوا إلى خطورتها [29]. أمّا الأستاذ سكاربا من بافي فيعتمد على المؤلّفين العرب في مجال طبّ العيون [30] وفي تصنيفه لأشكال أمراض الملتحمة وعلاجها.

وهكذا نرى أنّ الأستاذين الفرنسي والإيطالي استعملا مخطّط الدّراسة وقائمة الأمراض التي تصيب العين كما هي موجودة في كتاب الغافقي [31].

من جهة أخرى نجد أنّ الغافقي كان أكثر دقّة من بعض علماء أوروبا في مجال طبّ وجراحة العيون [32] : فقد كان دولادير عام 1820/1236 بباريس يحذّر من إجراء عمليّة على الشّعرة إلاّ في الحالات القصوى، بينما الغافقي يوصي بأنّ العلاج النّاجع لذلك يتمثّل في العمليّة الجراحيّة ومن ثمّة نصح بعمليّتين لهذا المرض حسب تطوّره، مع إعطائه لإرشادات دقيقة. وقد أثبت العلم الحديث صحّة ما ذهب إليه الغافقي.

كذلك كان في القرن 19/13 علاج الأكياس غير منطقي إذا ما قارنا ذلك بما أوصى به الغافقي الذي يشير إلى قطع الجفن من الخارج للأكياس السّطحيّة مع خيط الجرح بخيط حريري أو بشعر امرأة [33]. هذه النّصائح أثبت صحّتها العلم الحديث. والسّبل الذي هو غشاء ذو عروق يغطّي القرنيّة يعتبره الغافقي مرضا معديا. والمعروف الآن أنّ التراخوما الذي يسبّب السّبل، وهو عرض من أعراضه، معد للغاية [34]. أمّا علاج الظفـــر في العين بنوعيه العادي والملتحم فيشرحه الغافقي بدقّة متناهية

---

(29) نفس المرجع .
(30) نفس المرجع.
(31) نفس المرجع.
(32) نفس المرجع.
(33) نفس المرجع.
(34) نفس المرجع ص 51.

ويميّز في الوقت نفسه بين الظّفر الحقيقي وشبه الظّفر (35) ، وهو مرض يؤكّد أطبّاء العيون أنّ علاجه على درجة عالية من الخطورة وعلى الجرّاح أن يكون على غاية الحذر في تناوله.

العلاج بعد العمليّة يوليه الغافقي اهتماما خاصّا حتّى يتمّ منع الالتصاق بين الجفن والعين، أي مراقبة المريض بصفة جيّدة. لقد تناول الغافقي مسألة الرّضوض وهي الحوادث التي تتعرّض لها العين وأعطى وسائل استخراج الأجسام الخارجيّة من العين. يصف الغافقي أيضا وبدقّة أعراض أمراض القرنيّة ويصف بصورة صحيحة العرض الأساسي لاختراق القرنيّة والذي يعرف حاليا بنفس الأسلوب وهو اللطخة السّوداء تحيطها ساحة بيضاء مع تغيير شكل الحدقة (36) .

ويذهب الغافقي إلى أبعد من ذلك حين يتنبّأ بمصير المريض بعد العمليّة مستنبطا ذلك من انعكاسات الضوء الموجّه وتفاعله مع العين إذ يعتبر عدم تحرّك الحدقة عرضا ينبئ بعدم شفاء المريض. كما يوصي بوضع ضمد على العين ويلزم مريضه بالرّاحة لمدّة ثلاثة أيّام بدون تحرّك، مع استعمال مرهم متمثّل في صفار البيض (37). وهذا الأخير، كما يؤكّد الأطبّاء،هو مادّة معقّمة بدون جراثيم إذا تستعمل مباشرة نظرا إلى احتوائها على فيتامين (أ) الذي يساعد في التئام الجروح.

من جهة أخرى وبخصوص جراحة الأجفان (38)، يعتبر الغافقي متفوّقا على أشهر جرّاحي الأندلس أبي القاسم الزهراوي، ويعتبر الغافقي أيضا بخصوص تشخيص المرض للمصابين بالكاتاراكت متفوّقا على شرح ابن سينا في القانون.

(35) نفس المرجع.

(36) نفس المرجع ص 51- 52.

(37) نفس المرجع.

(38) نفس المرجع ص 52.

مارس الغافقي أيضا جراحة التّجميل (39) حيث أوصى بوصم العين ليتحسّن منظرها، كما استعمل بعض الأزهار من نوع البيلادون من أجل توسيع الحدقة وتغيير مؤقت للون العينين من الأزرق إلى الأسود.

3- في طبّ الأعشاب والصّيدلة:

ابن البيطار:

كان ابن البيطار من أشهر أطبّاء الأعشاب الذين عرفهم العالم في القرن 13/7(40): فقد استخرج هذا الطّبيب من النّباتات وصفات طبيّة مفيدة، وبحث أيضا في العقاقير المستخرجة من الحيوانات والمعادن.

ب-أشهر الطّبيبات:

إنّ ازدهار العلوم الطبيّة في الأندلس كان فيه للنّساء نصيب. لقد شجعت بعض العائلات الأندلسيّات بناتهنّ على تعلّم الطّبّ كعائلة بني زهر : فمن طبيبات هذه العائلة، التي عاشت ما بين القرن 11/5 والقرن 13/7، نذكر (41):

- شقيقة الحفيد أبي بكر بن زهر وابنتها.
- بنت الحفيد أبي بكر بن زهر وابنة بنته.

لقد اشتهرت شقيقة الحفيد وابنتها في طبّ النّساء حيث اتّخذهما المنصور بن عامر الأندلسي كطبيبتين لعائلته نظرا إلى شهرتهما وثقته بقدراتهما الطّبيّة (42).

II- إسهامات الأطبّاء الأندلسيين في التّأسيس للعلوم الطبيّة:

أمّا فيما يتعلّق بإسهامات الأطبّــاء الأندلسيــين والمسلمين بصفة عامّة في التّأسيس

---

(39) نفس المرجع.

(40) الفاضل (عمر): الطّب الإسلامي عبر القرون، دار الشواف ، الرّياض، ط.1 1989، ص 48.

(41) نفس المرجع ص 50.

(42) أحمد (عبد الرّزاق): الحضارة الإسلاميّة في العصور الوسطى، ط.1، دار الفكر العربي 1991، ص 165.

للعــلوم الطّبــية فكانت واضحة وذات دلالات كبيرة ومازالت موجودة إلى يومنا هذا. وتتمثّل هذه الإسهامات خاصّة في:

- طريقة التّعليم الطّبي العيادي القائم على مشاهدة المرضى.
- الاستماع بعناية واهتمام لشكواهم.
- الاستقصاء في التعرّف عن أحوالهم وزيارة منازلهم عند الضّرورة.

ومن وسائل ذلك المرور على أسرة المرضى بالبيمارستانات حيث كان الأساتذة الأطبّاء يصاحبون تلاميذهم ويفسّرون لهم أحوال المرضى ويشيرون عليهم بالعلاج. كما كان رؤساء الأطبّاء وكبار الجرّاحين يعتمدون في تدريسهم وإلقاء محاضراتهم على المناقشات العلميّة: فكانوا يجلسون مع طلبتهم في قاعات مخصّصة للتّباحث في الأمور الطّبيّة. كما أنّهم كانوا حريصين على عدم إجازة تلاميذهم إلاّ بعد أن يقدّموا أطروحة تمهيدا للحصول على الإجازة الطبيّة (43).

وقد كانت المستشفيات المنتشرة في أرجاء الدّولة الإسلاميّة شرقا وغربا مقسّمة إلى جناحين للرّجال وللنّساء وكلّ جناح مديره وموظّفوه، كما كان لبعض المستشفيات الطبيّة (44) مكتبات (45). ويتدرّب معظم الأطبّاء على مهنتهم بالتّتلمذ على أستاذ ممارس، وآخرون كانوا يرحلون إلى مدن أخرى ليتتبّعوا دروس أحد الأطبّاء المشهورين (46). ومما يؤكّد ذلك هذه الرّواية الإسبانيّة التي مفادها أنّ طبيبا من مدينة قادس زرع في حديقة حاكم المدينة أعشابا طبيّة نادرة جلبها معه من رحلاته (47).

---

(43) الهوني (فرج): تاريخ الطب في الحضارة العربية الإسلامية،الدّار الجماهيريّة، طرابلس، ط.1 1986، ص 149.

(44) كان عدد المستشفيات الطبيّة كبيرا، كما تشير إلى ذلك وثيقة توجد في كتاب ألّفه جمهرة من المستشرقين تحت عنوان: تراث الإسلام، ترجمة فتح الله جرجيس، ط.3، دار الطّليعة- بيروت 1978، ص 181.

(45) نفس المرجع ص 182.

(46) نفس المرجع.

(47) نفس المرجع.

هذا كلّه يدحض ما ذهب إليه مؤرّخو الطب من الأروبيين المجانبين للصّواب الذين يرون في بعض شخصيّات القرن 13/7 أو القرن 14/8 روّاد الطب الجديد في أروبا، بالرّغم من أنّهم في الواقع بعيدين كلّ البعد عن أن يأتوا بالجديد مقارنة بما توصّل إليه نظراؤهم من العرب والمسلمين، وقد يكون الشيء الوحيد الذي نجحوا فيه هو تأليفهم لكتب جديدة استخرجت موادها من كتب هؤلاء الأطبّاء : أندلسيين كانوا أم مشارقة. وفي هذا الصّدد يقول بريفولت:" العلم هو أعظم ما قدّمت الحضارة العربيّة إلى العالم الحديث، ومع أنّه لا توجد ناحية من نواحي النّمو الأروبي، إلاّ ويلحظ فيها أثر الثّقافة الإسلاميّة النّافذ، إلا أنّ أعظم أثر وأخطره ذلك الذي أوجد القوّة التي تؤلّف العامل البارز الدّائم في العالم الحديث، والمصدر الأعلى لانتصاره : أعني العلم الطّبيعي، والرّوح العلميّة، وهذه الحقائق مؤداها أنّ الإسلام دين بناء حضاري" [48].

استـــنتاج:

ما يمكننا أن نستنتجه من خلال ما تقدّم هذه الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان والتي مفادها أنّ البشريّة في الفترة الممتدّة ما بين القرن 8/2 والقرن 15/9 لم تكن تعرف طبا يعتدّ به ومن ثمّة فهي مدينة للطبي العربي شرقا وغربا وخاصّة الطبّ الأندلسي. وهذه حقيقة لا يمكن لعاقل أن ينكرها أو ينكر التّفوّق الإسلامي في مجال الطّبّ بمختلف فروعه: علما ، وعملا وتأسيسا. وهناك حقيقة أخرى مفادها أنّ العرب لم يبخلوا على غيرهم طوال قرون عديدة بما توصّلوا إليه في المجال الطّبي، بل عملو بكلّ ما في وسعهم من أجل أن تستفيد الإنسانيّة كلها من خدماتهم الطبيّة العلميّة والإكلينيكيّة وبلسان عربي مبين.

وقد مهدت الفتوحات الإسلاميّة في إسبانيا وجنوب إيطاليا السّبيل لأروبا للاستفادة القصوى من علوم العرب في الطّبّ وغيره من المعارف: فقد أنشأ المسلمون في جزيرة

(48) منتصر(عبد الحليم): تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف،ط.8 1990، ص 139.

صقليّة أوّل مدرسة متخصصة في العلوم الطبية في أروبا [49] ساهمت مساهمة جبّارة في نشر العلوم الطّبيّة في إيطاليا حيث ضمّت هيئة التّدريس في جامعة ساليرنو بعض الأساتذة العرب [50]. وهذا مايجعلنا نتّفق تماما مع ما ذهب إليه الدّكتور إبراهيم الشريفي في قوله : "ولا مراء إذا قلنا إنّ حضارة الغرب، بكلّ مستكشفاتها واختراعاتها وأبعادها وآثارها الخارقة للعادة التي بلغت إلى حدّ الإعجاز، إنّما كانت من نتائج الإخصاب الإسلامي[51].

(49) حسن إبراهيم، مرجع سابق، ص 156.

(50) نفس المرجع.

(51) الشريفي (إبراهيم):أثر الحضارة الإسلاميّة في أروبّا الغربيّة، ندوة الحضارة الإسلاميّة، القاهرة 1983.